مجلة المختار للعلوم الإنسانية 29 (1): 125-132، 2018

Research Article

Open Access

أصول الحكم عند عبد الحميد بن باديس

عمر علي يونس

Doi: https://doi.org/10.54172/nfsrf535

المستخلص : تتناول هذه المقالة أصول الحكم عند عبد الحميد بن باديس، الزعيم الجزائري والمفكر الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين. يُعتبر بن باديس مصلحًا ورجلًا سياسيًا، وكان يعتمد في رؤيته على قيم دينية وعقائدية. حاول بن باديس تقديم دستور للأمة الجزائرية، يثبت فيه عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر، مستندًا إلى خطاب الخليفة الأول أبي بكر الصديق. رأى بن باديس أن الحكم في الإسلام يجب أن يكون بموافقة الأمة، وأن الشعب هو الذي يمتلك الحق والسلطة في الولاية والعزل. كما أكد على حق شعوب الأمة في مراقبة ومحاسبة الحكام وعزلهم إذا استبدوا بظلمهم. يشترط بن باديس الكفاءة والقدرة في الحكم بدلاً من الخيرة المطلقة. يتأثر بن باديس بنظرة عبد الرحمن الكواكبي للاستبداد، حيث يرى أن الحكام الظالمين سبب تخلف الأمة، ويعز على أهل العلم مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين. يؤكد بن باديس أن الأمة لا تحكم إلا بالقانون الذي وضعته لنفسها، وأن الحكام ليسوا سوى منفذين لإرادة الأمة. يتأكد بن باديس من أهمية المبادئ الإسلامية في العدل والإنصاف، ويسعى لإحياء هذه المبادئ من خلال التفاعل مع مبادئ الثورة الفرنسية. على الرغم من عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر، لم يكن بن باديس يستبعد العمل السياسي الداعي إلى الحقوق والتحرر والاستقلال. كان بن باديس أول من حدد فكرة الوطن الجزائري، وسعى لتحقيق الاستقلال والتحرر.

الكلمات المفتاحية: أصول الحكم، بن باديس، الوطنية، الاستقلال، الديمقراطية

Principles of Governance According to Abdelhamid Ben Badis

Omar Ali Younis

Abstract: This article discusses the principles of governance according to Abdelhamid Ben Badis, the Algerian leader and Islamic thinker in the first half of the twentieth century. Ben Badis is considered a reformer and a political figure who relied on religious and ideological values in his vision. He attempted to present a constitution for the Algerian nation, proving the illegitimacy of French rule in Algeria, based on the speech of the first Caliph, Abu Bakr Al-Siddiq. Ben Badis believed that governance in Islam should be with the consent of the people, and that the people have the right and authority to elect and remove leaders. He emphasized the right of the people to monitor, hold accountable, and remove rulers if they oppress them. Ben Badis required competence and capability in governance rather than absolute virtue. He was influenced by Abdelrahman El-Kawakibi's view on despotism, seeing that oppressive rulers are the cause of the nation's backwardness, and he urged the knowledgeable people to resist despots and educate the ignorant. Ben Badis affirmed that the nation should only be governed by the law it establishes for itself, and that rulers are nothing more than executors of the nation's will. He emphasized the importance of Islamic principles of justice and fairness and sought to revive these principles by interacting with the principles of the French Revolution. Despite the illegitimacy of French rule in Algeria, Ben Badis did not exclude political activism that advocates for rights, liberation, and independence. He was the first to define the concept of the Algerian nation and worked towards achieving independence and liberation.

Keywords: Principles of governance, Ben Badis, nationalism, independence, democracy.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

يعد(ابن باديس) مصلحاً ، ورجل سياسة، وصاحب كفاح سياسي ينبثق فيه من رؤية عقائدية دينية، فقد حاول أن يقدم دستور المستقبل للأمة الجزائرية، مبرهناً فيه على عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر[1] معتمداً كما يذكر(محمود قاسم) على ما استنبطه من خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق τ. التي قال فيها " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني،وأن أسأت فقوموني. الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ...أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم."[2]

ولهذا كان يرى انه لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة الإسلامية إلا بتوليه الأمة. فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل، فلا يتولى أمرها احد إلا برضاها،مؤكداً بأن أصول الحكم في الإسلام تتنافى مع أصول الحكم الاستعماري. رغم اعتراف بعض الجزائريين بمشروعيته بالتعامل معه، والامتثال لقوانينه. وفي نظرة عامة لأصحاب الحكم وأهليتهم للحكم نجد (ابن باديس) يبتعد عن النظرة التقليدية لعلماء الدين، إذ يشترط الكفاءة على الخيرة لذلك قدم الأرجح في الكفاءة لا في الخيرة.[3]

كما كان يؤكد على حق شعوب الأمة الأصيل في مراقبة ومحاسبة الحكام بل وعزلهم إذا استبدوا بظلمهم للرعية، فالمسلمين ما أصبوا بالهون والذل والتخلف كما يقول إلا بفعل الاستبداد " فإنه إذ جار السلطان، وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها، فسد كل شيء، فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها"[4]ونلاحظ هنا تأثرهبرؤية(عبدالرحمن الكواكبي) للاستبدادإذ يرى أن الأمة ما وصلت إلى ما وصلت إليه من استبداد ملوكها وحكامها " إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين، فعلى أهل العلم ... أن يقوموا ... فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشورى، في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم".[5]وبذلك يكون من أصول الحكم الثابتة كما يتصورها هي أن " لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي وضعته لنفسها وعرفت فيه فائدتها، وما الولاة إلا منفذون

لإرادتها، فهي تطيع القانون لأنه قانونها لا لأن سلطة أخرى لفرد أو جماعة فرضته عليها، كائناً ما كان ذلك الفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة، فتشعر بأنها حرة في تصرفها، وأنها تسيَير نفسها بنفسها، وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس لا للأفراد ولا للجماعات ولا للأمم، ويشعر هذا الشعور كل فرد من أفرادها، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي، وشرعي لها ولكل فرد من أفرادها."(6)

وإن هذه المصداقية في التعاطي مع القوانين كانت النهج الذي يسير عليه الخلفاء الراشدين في سياستهم للأمة، فالحاكم ينصاع للأحكام حتى ولو كانت ضد مصلحته الشخصية،ومصلحة أقاربه وهذا دأب الخلفاء الراشدين، فهذا أبى بكر الصديقr الخليفة الأول لرسول الله يأخذ من زوجته بضعة دراهم استفضلتها من نفقتها لشراء حلوى اشتهتها ويعدها إلى بيت المال قائلاً : يفصل عن قوتنا معتبراً أن أحكام الشرع لا تسمح له بغير ما يؤمن قوته وقوت عياله من بيت المال فخاف أن تكون زوجته قد تجاوزت كل ذلك.(7) لقد كان من أهداف جل المصلحين إرجاع هذا النهج من العدل والإنصاف، إيماناً بالمبدأ بعيداً عن كل تفصيل لشكل الحكومة، ونوع الحكم فالمجددين كانوا يرغبون في إحياء المبادئ الإسلامية من شورى وعدل ومساواة، فلم يجدوا في ذلك غضاضة في التفاعل مع مبادئ الثورة الفرنسة.

وعلى الرغم من إيمان(ابن باديس) بعدم مشروعية فرنسا في حكم الجزائر إلا أنه لم يكن بمنأى عن العمل السياسي الداعي إلى نيل الحقوق والتحرر والاستقلال، فقد كان(ابن باديس) هو أول من حدد فكرة الوطن الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين، بعد أن ظنت فرنسا وظن الكثيرون معها أنها جعلت الجزائر مقاطعة فرنسية. فقد رفع (ابن باديس) شعار الجزائر بلد إسلامي وعربي، وفي سنة 1926م يفتتح جريدة(المنتقد) بهذا العنوان (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء) فكان يطالب فرنسا بحقوق الشعب الجزائري والمساواة بينه وبين الفرنسي والمتفرنسين، فقد ظلت فرنسا تفرق بين المعمرين الفرنسيين والمواطنين الجزائريين. وخرجت على قوانينها وشعاراتها التي قامت عليها (الحرية والمساواة والأخوة) فعملت على تزييف الانتخابات فيما بعد تزييفاً أزعج الفرنسيين أنفسهم، كذلك خرجت فرنسا على أصل هام

من أصول الحكم عندما لم تحفظ التوازن بين طبقات الأمة. فحرضت على تجريد الضعفاء من كل ما بقي في أيديهم ، لتزيد من ثراء الأقوياء [8]. كما عملت على تقييد حرية الشعب الجزائري في تقرير مصيره، فتحكمت في كل مؤسساته الأهلية والدينية بغير وجه حق، وهذا ما جعل أعضاء (جمعية علماء المسلمين) برئاسة(ابن باديس) تعلن في مؤتمرها التاسع عن مطالب الجمعية العامة وهي:

- الاعتراف باللغة العربية كلغة قومية .
- حرية الدين والعبادة .
- رجوع الأوقاف والمنظمات الإسلامية ليد المسلمين .
- تنظيم المحاكم الشرعية وإعطاء الشعب الإسلامي حق انتخاب قضاته ومفتيه بالوسائل التي يراها .

وقد شرحت (جمعية العلماء) في السنين الأخيرة هذه المطالب في رسالة عن ضرورة تكوين مجلس إسلامي يشرف على شؤون الدين وتكون له السلطة التامة فيما يرجع لذلك، بحيث يعترف له أنه المهيمن على السلطة الدينية الإسلامية ، وبذلك ينفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية في الجزائر أسوة ببقية الديانات الأجنبية هناك.(فجمعية العلماء) إذن حركة إصلاحية سلفية من جهة ، ولكنها من جهة أخرى دعوة قومية تعارض كل سياسة تنادي بإدماج الجزائر في فرنسا وتطالب لهذا البلد صبغته الإسلامية الجزائرية.[9]لقد اعتبر (ابن باديس) أن الدين واللغة هما أساس الحفاظ على الهوية الجزائرية،لذلك فهي حق لهموامتياز ذاتي لا يمكن أن يتحكم فيه أحد، فقد حارب سياسة الإدماج التي تطبقها فرنسا على الجزائر، فوقف في وجه كل من يسوغ هذه السياسة ليقطع الجزائر عن عروبته وإسلامه، إذ كان يجمع في رؤيته بين النهضة الاجتماعية والنهضة السياسية فيقول في محاضرة ألقاها في تونس: **"** لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق**"**[10]

على أن الشيخ (عبد الحميد بن باديس) أعلن معارضته من بعد للمبادئ التي أعلنها (عباس فرحات) في كتابه (الشبيبة الجزائرية) مؤكداً أن الشخصية الجزائرية موجودة، وكان عباس قد قال:" إنني حاولت عبثاً البحث عن الشخصية الجزائرية في التاريخ والحاضر فلمأجدها "، وقال: " فرنسا هي أنا " [11] فقد رد (ابن باديس) على هذا القول في مقالة له في جريدة (الشهاب) تحت عنوان (كلمة صريحة) ومما يلفت الاهتمام في هذا المقال قوله:" إننا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته، فمن فوضى في الدين إلى فوضى في الأخلاق إلى فوضى في الاقتصاد وزادتنا الأيام على كل ذلك فوضى جديدة، ربما هي كانت أخطر الفوضاتوأشدها تأثيراً على حياة الأمة، وهي فوضى التكلم باسم الأمة"[12]

لقد تنبه (ابن باديس) إلى ظاهرة خطيرة ربما لا نزال نعاني منها على الصعيد الفردي والسياسي، وهي فوضى التحدث باسم الأمة أو الشعب. فقد أنكر على النائب (عباس فرحات) تحدثه باسم الأمة هو ومن معه من النواب وحديثهم عن أن الأمة الجزائرية غير موجودة، ولا خيار لها إلا بالاندماج في فرنسا. مؤكداً لهم بأن الواقع غير ذلك، فنحن أبناء الأمة الجزائرية قد فتشنا عن الأمة الجزائرية " فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها، وأحلامها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا " [13]

وإن كان (ابن باديس) قد أكد على وجود الأمة الجزائرية فهو أشد تأكيد وتثبيت على أن الوطنية الجزائرية موجودة، فقد كان مفهوم الوحدة الوطنية واضحاً عنده، فعلى الرغم من أن حركته تندرج في إطار الإصلاح الديني، فإنه لم يتخذ من اتجاهاته الإسلامية طابعاً لتعصب ضد بني جنسه من المتجنسين، أو ضد أي ديانة أخرى، إذ يقول:"... نهضتنا نهضة بنت على الدين أركانها، فكانت سلاماً على البشرية ... لا يخشاها ـ والله ـ النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، بل ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب ـ والله ـ أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله والخائن لخيانته..."[14] فخط التمايز الذي يضعه لم يكن دينياً. رغم وجود البعد الديني

الإسلامي ولكنه سياسي ، ذلك الخط الذي يفصل بين الظالم والمظلوم وبين الوطنيين والعملاء.[15]

وقد دخل خط العمل السياسي وأخذ يوجه النداء للأمة الجزائرية دون أن يتحدث باسم (جمعية العلماء) التي كان يرى ويرى أعضاؤها أن لا تدخل المعترك السياسي. في الوقت الذي استطاعت فرنسا فيه أن تجر الكثير من رجال السياسة من أصحاب الحلول الوسط فلوحت للجزائريين بمشروع (ليون بلوم وفيوليت) سنة 1936 م الذي يدعي أنه يعطي قدر أكبر من الحقوق للجزائريين .فقد خدع هذا المشروع كثير من السياسيين الجزائريين فخيل إليهم أن سياسة المهادنة أو السياسة المرحلية هي أفضل الطرق لإنقاذ الجزائر، واستخلاص الحقوق وكان من المخدوعين بذلك (فرحات عباس) والتي تعد سياسته خير ممثل للسياسة المرحلية .وقد أدرك (ابن باديس) خطر فكرة الإدماج على عقلية الكثير من رجال السياسة، فدعا إلى إقامة مؤتمر إسلامي، وعندما أسس المؤتمر الجزائري كان غالبيته من أنصار إدماج الجزائر، واستطاع العلماء المشتركين مع (ابن باديس) من(جمعية العلماء المسلمين) الذي دخلوا بصفتهم الشخصية، أن يوجهوا قراراته، وكان من بينهم كل من الطيب العسفي،والبشير الإبراهيمي، ومحمد خير الدين ... وآخرون. وعلى الرغم من نجاحه في توجيه قرارات المؤتمر إلى الاعتراف بالشخصية العربية الإسلامية للجزائر، فإنه لم يوافق على تلك القرارات بل ندد بها فيما بعد.[16]

وقد ظن أعضاء المؤتمر أنهم " تمكنوا من توفير الوحدة الفكرية الضرورية لمطالبة فرنسا بحقوق الجزائر، وسافر وفد منهم، ومن بينهم (بن باديس) إلى باريس سنة 1936م، وقصة هذا اللقاء مشهورة، فقد هدد الوزير الفرنسي الوفد وذكرهم بقوة فرنسا وبمدافعها بعيدة المدى قائلاً، إن لدى فرنسا مدافع طويلة فرد عليه (بن باديس) إن لدينا مدافع أطول، وقد نقل هذه القصة(عباس فرحات) إذ تساءل (دلادبيه) عن أمر هذه المدافع، فأجابه(ابن باديس) جاداً إنها مدافع الله، ورجع الوفد خائب الرجاء. لكن هذا الموقف من قبل الإدارة الفرنسية جعل(ابن باديس) واثق من أنه لا أمل من مهادنة فرنسا، بل يجب مواجهتها، وقد روى أنه أنشد قصيدته المشهورة بعد عودته من باريس ومنها:[17]

شعب الجزائر مسلـــم وإلى العروبة ينتســـب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كـــذب

....

يا نسئ أنت رجاؤنـــا وبك الصحاح قد اقترب

ومن هنا توصل (ابـن بـاديس) إلـى حقيقـة مفادهـا أنـه لا يجـوز للأمـة الجزائريـة أن تسـتمر فـي سياسة المهادنة و المحاباة مع فرنسا " وهذا هو السبب فـي أنـه يصـدر بيانـه للأمـة وللسياسـيين تنبهاً للأذهان وتوجيهاً لآراء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي، إلى أن السياسة الوحيدة التي يرى أنها ربما أدت الأثر المطلوب هي سياسة المقاومة السلبية ، ومقاطعة النواب للانتخاب والمشاركة في النيابة البرلمانية " [18] ولا نستطيع أن نطلب من (ابـن بـاديس) أكثـر ممـا نـادى بـه فـي تلـك الحقبة، ولكن مقالاً شديد اللهجة وواضح الدلالة يكتبه(ابن باديس) في الشهاب يؤكد انقطاع طريقه في العمل السياسي مع الاستعمار الفرنسي والاعتماد على الثـورة الشعبية، إذ يحمل العنـوان (هـل آن أوان اليأس من فرنسا) يؤكد فيها بأنه على الشعب أن يعتمد على نفسـه، ويتمسك بهويته حتـى طريق الاستقلال.[19] وقد روي عنه بأنه " حينما حمى وطيس الحرب العالميـة الثانيـة اجتمـع بـه جماعة من أنصار حركته ومريديه فقال: عاهدوني، فلمـا أعطـي لـه العهـد بالمصـافحة قـال: إنـي سأعلن الثورة على فرنساعندما تشهر عليها إيطاليا الحرب، وروى تلميذ آخر من تلامذته أنه كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال أوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لـو وجـد رجـالاً يسـاعدونه." [20]

لقد أيقن (ابن باديس) أن ثمار النهضـة الجزائريـة التـي بثهـا فـي كـل شـعب الجزائـر قـد أينعـت، فجميع الشعب الجزائري أصبح يدرك معنى الوطن والأمة الجزائرية ومعنى التحرر والاسـتقلال، لذلك لم يتورع في إبداء رأيه عن استقلال الجزائـر، إذ يقـول : " إن الاسـتقلال حـق طبيعـي لكـل أمه من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننـا فـي القـوة والعلـم والمنفعـة والحضـارة، ولسـنا مـن الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبـد، فكمـا تقلبـت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلباً مع التاريخ." [21]

وهكذا كانت مسيرة (ابن باديس) النضالية والإصلاحية خير تمهيد لحركة التحرير الجزائري، إن لم نقل أنه كان وراء اندلاع ثورتها، فلقد استطاع أن ينهض بالأمة الجزائرية ويحيي لها دينها وقوميتها وإن كان انخراطه في العمل السياسي غير مجدي، إلا أنه يمكن القول أنه استطاع من خلاله أن يبرهن لكافة الشعب أن فرنسا عدو، ولن تف للشعب الجزائري بوعودها بمنحه حقوقه وحريته.ومن الملاحظ أيضاً أن (ابن باديس) استطاع أن يستثمر فكرة القومية والوطنية التي ظهرت واضحة من خلال كتاباته في معركته ضد الاستعمار الفرنسي، إذ كان يرى أن حربه مع فرنسا لم تكن حرب جيوش بل هي حرب هوية، تسعى فرنسا لمحوها، لذلك فإن " المستجدين من قادة النضال الوطني ، كانوا على الخط نفسه ، خط النضال الذي اندمجت فيه الوطنية مع القومية مع الإسلام بحيث صار من الصعب التمييز بينهم ." [22]وفي النهاية يمكن القول أن أفكار ابن باديس الإصلاحية لم تنحصر في نطاق جغرافيا القطر الجزائري بل أنها سرت في كل أقطار المغرب العربي.

---

[1]محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص56.
[2] حسن الزين: الإسلام والفكر السياسي المعاصر، دار الفكر الحديث، بيروت، 1998م، ص151.

[3]محمود قاسم: ، الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص 65.
[4]عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث، ، الجزائر، 1982م، ص224.
[5] المصدر نفسه: ص221.
[6] محمود قاسم:الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص66.
[7] حسن الزين: الإسلام والفكر السياسي المعاصر، مرجع سابق، ص141.
[8] محمود قاسم:الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 66-67.
[9]علال الفاسي: محاضرات في المغرب العربي، ص91 .
[10]عمار الطالبي: آثار ابن باديس ج1، ط1، دار مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ص 88.
[11] علال الفاسي ، محاضرات في المغرب العربي ، مرجع سابق، ص91 .
[12]عبد الحميد بن باديس ، الشهاب ج1 ، م12 ، أبريل 1936م ، نقلاً عن : محمد الميلي ، ابن باديس ، مرجع سابق ، ص 190 .
[13]عبد الحميد بن باديس ، الشهاب ، ج1 ، م12 ، أبريل 1936 م ، نقلاً عن محمد الميلي: ابن باديس، دار الثقافة، بيروت، 1973م، ص192.
[14] محمود قاسم:الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص78.
[15]محمد الميلي: ابن باديس، مرجع سابق، ص192.
[16] المرجع السابق: ص 30-71.
[17]المرجع السابق: ص71.
[18] محمد الميلي:ابن باديس، مرجع سابق، ص180.
[19] عمار الطالبي: آثار ابن باديس، مرجع سابق، ص89.
[20] محمد الميلي ، ابن باديس ، مرجع سابق ، ص 197 .
[21] فايز ساره: الحركة الإسلامية في المغرب العربي، ط1، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت، 1995م، ص22.